المُحَاضرة الثَّانيةُ: شيءٌ من تاريخِ إعجاز القرآن

الحقُّ أنَّ مادَّةَ هذه المحاضرةِ هي تلخيصٌ لمضامين محاضرات السُّداسيِّ جميعِها؛ لأنَّها بمثابة النَّظرةِ العجلى على المسيرةِ التاريخيَّة لإعجاز القُرآن الكريم، فيما ستكون سائرُ المحاضراتِ كالوُقُوف عند المحطَّات الكبرى لهذه المسيرة، وتسجيلِ ما هنالك من مُلاحظاتٍ، وتحقيقًا لهذا الغرضِ؛ رأيتُ أن أجعلها في مسألتين اثنتينِ: الأولى في تاريخ مصطلح إعجاز القرآن، والأخرى في تاريخ التَّأليف في إعجاز القرآن، وإن كان الكلام بينهما متلازمًا، فإنَّا سنُحاول التَّمييزَ بينهما، وسنمهِّدُ لذلك بالتَّمهيد الآتي:

تمهيدٌ: إعجازُ القرآن غيرُ مقصودٍ لذاته

إذا تقرَّرَ أنَّ إعجاز القرآن هو: إثباتُ القرآنِ عجز الخلق عن الإتيان بمثل ما تحدّاهم به؛ فقد عُلم أيضا أنّ تعجيزهم عن ذلك ليس لمجرّد التَّعجيز، إذ لو كان ذلك، لكان ضربا من العبث، وإنّما المراد لازم ذلك، وهو إثبات أنّ هذا القرآن من عند الله حقًّا، ومن ثمّ فإنّ البشر الّذي جاء به رسول الله صدقا، وهذه هي مسألة دلائل النّبوّة، أي: براهين صدق النّبيِّ ﷺ في دعواه أنّه مرسل من ربِّه ﷻ.

وقد ذكر الزّركشيُّ رحمه الله (ت:794هـ) بهذا الصّدد أنّ علم الإعجاز: «علم جليلٌ، عَظِيمُ الْقَدْرِ، لِأَنَّ نُبُوَّةَ النَّبِيِّ ﷺ مُعْجِزَتُهَا الْبَاقِيَةُ الْقُرْآنُ، وَهُوَ يُوجِبُ الِاهْتِمَامَ بِمَعْرِفَةِ الْإِعْجَازِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[إبراهيم:1]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ**﴾[التوبة:6]، فَلَوْلَا أَنَّ سَمَاعَهُ إِيَّاهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ؛ لَمْ يَقِفْ أَمْرُهُ عَلَى سَمَاعِهِ، وَلَا تَكُونُ حُجَّةً إِلَّا وَهِيَ مُعْجِزَةٌ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ**﴾[العنكبوت:50-51]، فأخبر أَنَّ الْكِتَابَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ، وَأَنَّهُ كَافٍ فِي الدَّلَالَةِ، قَائِمٌ مَقَامَ مُعْجِزَاتِ غَيْرِهِ وَآيَاتِ سِوَاهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»[1].

فقد صرّح رحمه الله بأنّ موجب الاحتفاء بالإعجاز، تعلُّقه بنبوّة النبيّ ﷺ، ولعلّ الزّركشيَّ رحمه الله استفاد هذا من الباقلاّنيِّ رحمه الله (ت:403هـ) القائل: «الَّذي يوجب الاهتمام التَّامَّ بمعرفة إعجاز القرآن، أنَّ نبوَّة نبيِّنا بُنِيت على هذه المعجزة، وإن كان أُيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة، إلاّ أنّ تلك المعجزات قامت في أوقات خاصّة،

[1] الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2، ص90-91.

وأحوال خاصَّةٍ، وعلى أشخاص خاصّة[...] فأمّا دلالة القرآن، فهي عن معجزة عامّة، عمّت الثّقلين، وبقيت بقاء العصرين، ولزومُ الحجَّةِ بها في أوَّلِ وقتِ وُرُودِها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد»[1].

كما يشير الزُّرقانيُّ رحمه الله (ت: 1367هـ=1947م) إلى أنَّ التّعجيز الواقع بالتّحدّي بالقرآن الكريم، ليس الغرض منه نفس التَّعجيز، وإنَّما ما ينجرُّ عنه، وهو صدق النَّبيِّ ﷺ، يقول رحمه الله: «ولكنَّ التَّعجيزَ المذكورَ، ليس مقصودا لذاته، بل المقصودُ لازمُه، وهو إظهار أنّ هذا الكتابَ حقٌّ، وأنّ الرّسول الّذي جاء به رسولُ صدقٍ، وكذلك الشّأن في كلّ معجزات الأنبياء، ليس المقصود بها تعجيز الخلق لذات التّعجيز، ولكن للازمه، وهو دلالتها على أنَّهم صادقون فيما يبلِّغون عن الله ﷻ»[2].

المسألة الأولى: تاريخُ مصطلح إعجاز القرآن

من المتَقرِّرِ الآنَ أنَّ (إعجاز القُرآن) بوصفِهِ مُصطلحًا مُتميِّزًا؛ لم يكن معروفًا في بيئةِ المتكلِّمين، إلاَّ جُزءًا من قضيَّة النُبوَّات؛ والَّتي كانوا يُسمُّونها: دلائل النُّبوة، وحجج النبوَّة، وآيات النُّبوَّة.

ولم يُذكر هذا المصطلح في القرآن ولا في حديث النبي ﷻ ولا في كلام الصحابة والتابعين، وكانت تستعمل كلمة (آية) مكان (المعجزة) و(الإعجاز)، وقد نشأ هذا المصطلح في نهاية القرن الثالث في بيئة المتكلمين الذين كانوا يدافعون عن القرآن الكريم ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ والأهواء[3]؛ إذ بدأت الأفكار الجديدة تتسلل إلى عقول المسلمين، على حينِ بدأ الإسلام ينشر لواءه على البلدان المفتوحة، فأقبل الحاقدون من المغلوبين على الدين الجديد؛ يدرسونه وينظرون فيه بعقولهم القديمة ونفوسهم السابقة، وفي ضوءٍ من تراثهم الدينيِّ والفلسفيِّ[4]، كما أشارَ إلى ذلك ابنُ قُتيبةَ رحمه الله (ت:276هـ) بقوله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون، ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا (ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ) بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضوا عليه بالتّناقض والاستحالة،

---

[1] الباقلاني، إعجاز القرآن، ص8.

[2] الزرقاني، مناهل العرفان، ج2، ص331.

[3] يُنظر: محمود شاكر، مداخل إعجاز القرآن، ص. و: زهير ريالات، مقال "الإعجاز القرآني في مسيرته التاريخيَّة"، ملتقى أهل التفسير، تاريخ الإضافة: 1433/12/15هـ-2012/10/30م.

[4] يُنظر: منير سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص47.

واللَّحن وفساد النَّظم والاختلاف، وأَدْلَوْا في ذلك بعلل؛ ربما أمالت الضَّعيف الغُمْرَ، والحدث الغِرَّ، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشُّكوك في الصدور»[1].

– والَّذي يميلُ إليه العلاَّمةُ محمود شاكر رحمه الله (ت:1418هـ=1997م)، أنَّ مُصطلح الإعجاز كان ثمرةَ نظرٍ طويلٍ بين الجاحظ وبين شيخه النَّظَّام (ت:224هـ)، وإن كان لم يجرِ على لسانه المصطلح بذاته، فإنَّه كان يدور في فَلَكه في كتبه المقرَّرة في هذا الشَّأن؛ وهي (حجج النبوة، ونظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان).

والأرجحُ أن يكون هو الَّذي مهَّد إليه بما كان يتردَّدُ عنده عند الكلام عن أسلوب القرآن وبلاغة نظمه من عباراتِ: (ولو تُحُدِّيَ بها أبلغُ العرب؛ لظهر عجزه عنها)، و(ولو لم يكن تحداهم في كل ما قلنا، وقرَّعهم بالعجز عمَّا وصفنا)، و(فتحدَّاهم بما كانوا لا يشُكُّون أنهم يقدرون على أكثر منه، فلم يزل يُقرِّعهم بعجزهم)، فإنَّ لفظ (التحدِّي)، المقرون بلفظِ (العجز) في كلامِ الجاحظ، هو الَّذي أوحى إلى من بعدهُ بمصطلحِ (الإعجاز)[2].

ولعلَّ أول من استعمل مصطلح (الإعجاز) صراحةً محمد بن يزيد الواسطي المعتزلي، وهو متوفًّى سنة 306هـ؛ فبينه وبين الجاحظ (ت:255هـ) إحدى وخمسون سنةً فقط؛ ولا يمتنعُ أن يكون استثمرَ فيما اقترب إليه الجاحظُ ولم يُصرح به؛ فإنه كان أقرب شيءٍ إلى أن يقول: إن القرآن أعجز العرب أن يأتوا بسورة من مثله؛ فيخرجُ له منه لفظ (إعجاز القرآن) أو (الإعجاز)، ولكنَّه اكتفى بقوله: (يقرعهم بعجزهم) وأشباهها من العبارات؛ فجاءَ الواسطيُّ (ت:306هـ) واستفاد من تلك المقدِّمات، وسمَّى كتابه (إعجاز القرآن)، فهو أول من ألف في الإعجاز، وقد فُقِد هذا الكتاب في جملة ما فقد من كتب التراث[3].

– ومن الأدلة على أن أول استعمال لمصطلح الإعجاز كان بعد منتصف القرن الثالث الهجري؛ كتاب علي بن ربن الطبري (ت:247هـ) (الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ) الذي ألفه قبل منتصف القرن الثالث الهجري، ولم يستخدم كلمتي (إعجاز) و(معجزة)، مع أنَّهُ كان أحوجَ ما يكون لهذا المصطلح؛ لأنَّهُ بإزاء مُحاجَّةِ كُفَّارٍ مُعاندين، إذ كان علي بن ربن الطبري هذا نصرانيًّا شرح الله صدره للإسلام زمن الخليفة المتوكل، فأعلن إسلامه على يد الخليفة، وكان له عمٌّ نصراني متعصب اسمه يحيى بن النعمان الطبري، فأنكر على ابن أخيه إسلامه، فقام بتأليف كتابه للرد على عمه وتلامذته، وهو من أوائل الكتب المؤلفة في مقارنة الأديان، والانتصار

[1] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص23.

[2] يُنظر: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص23-26.

[3] يُنظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص106. و: محمود شاكر، مداخل الإعجاز، ص26.

للإسلام والقرآن، وإثبات نبوة النبي ﷺ. أقول: رغم أنَّهُ كان في هذه الأجواءِ الَّتي تجعلُ من استعمالِ كلمة (الإعجاز) أمرًا منطقيًّا، وفي بيئةٍ مُلائمةٍ، ولكنَّه استخدم مكانها كلمة (آية) الَّتي كانت لا زالت رائجةً ذائعةً عند العلماء، وما ذلك – والله أعلم – إلاَّ لأنَّ مُصطلحَ (الإعجاز) لم يظهرْ بعدُ[1].

المسألة الثَّانية: تاريخ التَّأليف في إعجاز القُرآن

قسَّمَ أهلُ الشَّأنِ التَّأليف في إعجاز القرآن الكريم قسمين، عند القُدماءِ وعند المحدثين.

1- أمَّا عند القُدماء: فقد مرَّ هذا الطَّورُ بثلاثةِ أدوارٍ:

– الأوَّل: دور الإشارات؛ والمقصود به الزَّمنُ الَّذي لم تستقلَّ فيه قضيَّةُ الإعجاز بالتَّأليف المنفرِد؛ بل كانت هُناك إشاراتٌ إليها في بعض المصادرِ الَّتي عُنيت على وجهِ الخُصوص بمعاني القرآن وإعرابه، فإنَّ فيها شيئًا غيرَ قليلٍ من الكلام عن أساليب القرآن وطرائق التعبير الواردة فيه، ومعنى ذلك أنَّ الكلام عن الإعجاز فيها كان بعيدًا عن التقعيد النظري، إنما هو إشاراتٌ وإلماحاتٌ تطبيقيَّة على آي القرآن عند الكلام عن أساليب القرآن من التشبيهات والكنايات والإستعارات وغيرها؛ ممَّا كان النواة الأولى لمن تكلم في بلاغة القرآن من بعدُ، ومن الكتب الَّتي يمكنُ إدراجها في هذا الصنف: معاني القرآن للفراء رحمه الله (ت:207هـ)، ومجاز القرآن لأبي عُبيدة رحمه الله (ت:209هـ).

– كما لا يُمكنُ أن نُغفلَ في هذه الفترة، دور النَّظَّام (ت:224هـ) شيخ الجاحظ في الإعتزال، ودورَ تلميذه الجاحظ كذلك (ت:255هـ)؛ فإنَّ لهما فضلا كبيرًا في بلورة مصطلح الإعجاز، وإعداده للبروز، وإن كانت نظرتُهما له مُختلفةً؛ فإنَّ النَّظَّامَ من القائلين بالصَّرفةِ، بل لعلَّهُ مُبتدعُها، فيما الجاحظُ من أنصارِ الإعجاز الذاتي البياني، وهو ما بثَّه في مؤلفاته الموجودة والمفقودة، من قبيل: حجج النبوة، والبيان والتبيين، والحيوان، ونظم القرآن وسلامته من الزيادة والنقصان؛ الَّذي ردَّ فيه على شيخه النَّظَّام.

– وننبِّهُ كذلك على مُساهماتِ ابنِ قُتيبة رحمه الله (ت:276هـ) في هذا؛ خاصَّة في كتبه المتعلِّقة بالقرآن الكريم؛ كـ(تأويل مشكل القرآن) و(تفسير غريب القرآن)، وليس له رحمه الله تأليفٌ مستقلٌّ في قضيَّة الإعجاز القرآنِي، ولكنَّها مبثوثة في كتبه من خلال شيئين: الرَّدِّ على الملاحدة والشعوبيين ممن طعنوا في القرآن الكريم، وبيان بلاغة أسالب القرآن الكريم في مسائل التشبيه والاستعارة والمجاز والتكرار والزيادة وما إليها.

[1] يُنظر: نعيم الحمصي، فكرة الإعجاز من البعثة إلى العصر الحاضر، ص7. و: الخالدي، إعجاز القرآن البياني، ص81-82.

– الثَّاني: دورُ الرَّسائل؛ وهي الكتب صغيرة الحجم، أو ما يُقابلُ (الأجزاءَ) عند المحدِّثين (وهي المسائلُ التي تُكتبُ في عشرين ورقةً أو نحوها)، وهذ الدَّورُ بدأت تظهر فيه كتبٌ مُتخَصِّصةٌ في (الإعجاز) لكنها صغيرةُ الحجمِ وجيزة المضمون، ومن أشهرِ رسائل هذه الفترة:

– النُّكت في إعجاز القرآن للرُّمَّانيِّ رحمه الله (ت:384هـ)، وسبب تأليفه لهذا الكتاب سؤال من أحد طلبته عن ذكر نكت في إعجاز القرآن من غير تطويل (والنكت: هي المسائل اللطيفة والأفكار النادرة القيمة حول إعجاز القرآن). وقد ذكر أنَّ أوجه الإعجاز سبعةٌ على الإجمال؛ أهمُّها الصَّرفةُ والبلاغةُ.

– بيان إعجاز القرآن للخطَّابيِّ رحمه الله (ت:388هـ)، وخلاصة ما فيه قوله بالإعجاز البيانيِّ للقرآن، وسبقه الجرجانيَّ إلى الإشارة إلى قضيَّة النَّظم، وتنبيهه على الإعجاز النفسيِّ.

– الثَّالث: دورُ الكتبِ؛ وهنا بدأتِ الكتب التَّخصُّصيَّة طويلة النَّفَسِ في قضيَّة الإعجاز القرآنيِّ تظهر، ولعلَّ قرنًا من قرون التَّاريخ الهجريِّ، لم يخلُ من تأليفٍ في الإعجاز القرآنيِّ، ومن ذلك:

– إعجاز القرآن للباقلاَّنيِّ (ت:403هـ)

– دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانيِّ (ت:471هـ)

– الكشَّاف للزَّمخشريِّ (ت:538هـ)

– نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرَّازي (606هـ)

– المجِيدُ في إعجاز القرآن المجيد للزَّمَلْكاني (ت:651هـ)

2– وأمَّا عند المُحْدَثين: فكثيرٌ أيضًا، ولكن أهمُّ المؤلفات:

– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي (ت:1356هـ=1937م)

– النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز (ت:1377هـ=1958م)

– الإعجاز البياني في القرآن، لعائشة عبد الرحمن (ت:1419هـ=1998م)

– مداخل إعجاز القرآن، لمحمود شاكر (ت:1418هـ=1997م).[1] رحم الله الجميع

[1] يُنظر: الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص105 وما بعدها. و: فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ص37. وإنَّما أشرنا هنا إشارات فقط إلى المؤلفات في الإعجاز، لأنَّا سنأتي على ذكرها تفصيلاً في المحاورِ الثَّلاثة الآتية، فذكرها هنا من قبيل (اللفِّ)، وسيأتي (نشرُها).